الشهيد الصدر
مدرسة حضارية رائدة

السيد منذر الحكيم



الصدر المؤسس في سطور

١ ـ في بداية العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجري أبصر النور في مدينة الكاظمية وهي الضاحية الغربية لعاصمة العراق.

٢ ـ تحدّر من أسرة علمية عريقة عرفت بالنبوغ العلمي والزعامة الدينية والتفاني لإعلاء كلمة الله.

٣ ـ تلقّى مبادئ العلوم في محيط أسرته التي فقدت عميدها وهو لم يزل صبيّاً لم يستوف عقده الأوّل، فكان الفقر حظّه الذي لم يثنِهِ عن مواصلة سعيه في طلب العلم والمعرفة.

٤ ـ كان خياره خيار سلفه فاتّجه صوب النجف الأشرف حيث كانت جامعتها مركز الثقل لكل الحوزات العلمية في العالم الشيعي.

٥ ـ تلمّذ بشكل أساس في الفقهَ وأصوله على الفقيه الأصولي المحقق آية الله العظمى السيد أبي القاسم الخوئي قدس سره.

٦ ـ أما في المجالات الأخرى فلم يُعرف له أستاذ يُشار إليه بالبنان؛ إذ كان جُهده ونبوغه رائدية في كل ما قرأ وألّف وأنتج.

٧ ـ بدأ في الإنتاج العلمي مبكّراً، إذ كتب دراسة نقدية لمنطق أرسطو قبل سنّ الرشد ولم يشأ نشرها[1].

٨ ـ وفي نهاية العقد الثاني من عمره كانت له رسالة في علم أصول الفقه تحت عنوان (غاية الفكر) في علم الأصول. كما ظهرت له في هذه الفترة دراسة تأريخية بارعة تحت عنوان (فدك في التاريخ).

٩ ـ وفي نهاية عقده الثالث أخرج كتاب «فلسفتنا» إلى المكتبة الإسلامية خلال عشرة أشهر ثم أردفه بكتاب «اقتصادنا»، إذ ذاع صيتهما في العراق وغيره من العالم الإسلامي. ثم تلاهما البنك اللاربوي في الإسلام فكان فتحاً جديداً في دراسات الفقه الإسلامي المعاصر.

١٠ ـ وكان عقده الرابع حُكراً على كتاب (الأسس المنطقية للاستقراء).

١١ ـ وتوالت بحوثه في أصول الفقه والفقه في الظهور حيث كان قد حرّر جلّها في عقده الثالث، وكان يلقيها على طلّابه في حوزة النجف وجاء معظمها بأقلام تلامذته. وأما ما كان منها بقلمه الشريف فهو: المعالم الجديدة وما عُرف بالحلقات الثلاث في علم أصول الفقه و«الفتاوى الواضحة» بعد تعليقته على منهاج الصالحين، ومناسك الحج. وتعليقته على (رسالة بلغة الراغبين) كان قد كتبها في أيام شبابه.

١٢ ـ ساهم في عقده الثالث بتقديم دراسات وطرح أفكار في مجال التنظيم السياسي، واستمرّ

يحمل همّ تغيير النظام السياسي باتجاه إقامة الحكم الإسلامي، فمارس قيادة أتباعه وتنظيم عملية بعث الدعاة في أرجاء العراق، ثم تصدّى إلى مواجهة نظام الحكم في العراق مخاطباً جماهيره علناً وسرّاً حتى شهادته، ورسم منهجاً فكرياً في ميدان العمل السياسي والاجتماعي»[٢].

١٣ ـ وكانت آخر محاولاته العلمية والتي وصلتنا من تراثه مجموعة محاضرات في فلسفة التاريخ ألقاها في أيامه الأخيرة ومجموعة كرّاسات تمثّل تخطيطاً عاماً لنظام الحكم في الإسلام. وقد طبعت تحت عنوان «الإسلام يقود الحياة».

وهناك محاولة تكاد تكون تأسيسية في مجال دراسة العقيدة الإسلامية كان كتب منها شيئاً كثيراً، لكنها فقدت مع ما فقد إثر مصادرة النظام في العراق لكل ممتلكاته التي لم تكن إلّا كتباً وأوراقاً وأثاثاً منزلياً بالياً[٣].

١٤ ـ لم يقتصر تراثه على ما كتب وألّف بل نجده ماثلاً في ما ربّى من العلماء الأفذاذ الذين تتلمذوا على يديه، وتشرّبوا بمعين خطّه الفكري العملاق ومدرسته التجديدية البديعة كما تفيّأوا بظلال خُلُقه الرفيع وكمالاته السامية.

١٥ ـ وللإمام الشهيد المجدد والمؤسس مجموعة كرّاسات يعدّ كل منها أطروحة ومشروعاً نموذجياً كبيراً قد جمعه في صفحات قليلة نجدها تحت العناوين التالية:

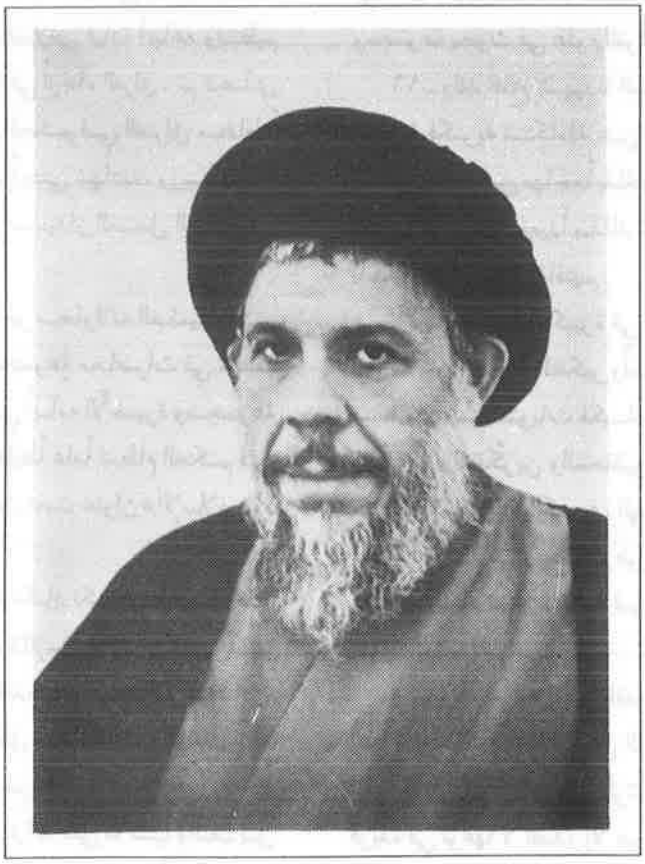
«المرجعية الموضوعية»، «بحث حول الولاية»، «بحث حول المهدي»، و «دور الأئمة في الحياة الإسلامية». و «التفسير الموضوعي». ومجموعة بحوث في علوم القرآن وغيرها.

١٦ ـ ولقد أفلح شهيدنا العظيم في تقديم منظومة فكرية متكاملة عن الإسلام بمنهج وأسلوب عصريين مهاجماً بذلك كل الأطروحات الغربية والشرقية، معيداً بذلك للمسلمين الثقة بأنفسهم وبدينهم وبثقافتهم.

١٧ ـ أحدث هزّة كبيرة في الحوزات العلمية أثمرت تغيير طريقة التفكير وأسلوب العمل على مختلف المستويات فكانت نقلة للعلماء والمراجع والمفكّرين والمحققين نقلة تتناسق مع تطلّعاته المستقبلية الكبرى الهادفة إلى إرساء دعائم الإسلام في ربوع الأرض وإقامة حكم الله فيها بعد إيجاد تيار ثقافي قويّ يتحدى كلّ الثقافات المعاصرة.

١٨ ـ وللسيد الشهيد مواقفه البطولية الفذة التي تعبّر عن مدى تفانيه في الثورة الإسلامية المباركة في إيران وقيادتها الرشيدة وهي مواقف فريدة في نوعها لا تصدر إلّا عن عملاق مثله في الفكر والإرادة والجهاد والعمل.

١٩ ـ وتميّزت مدرسة الشهيد الصدر الفكرية بالأصالة والعمق والدقة والنضج إلى جانب المعاصرة والحداثة والنظرة الشمولية مع المنهجية والنزعة الموسوعية والرؤية والواقعية ذات التطلعات المستقبلية مع بعد الأفق والحيوية والحركية والنزعة الإنسانية إلى جانب التأسيس والإبداع في الأطر والمحتويات مع الاعتزاز بالتراث والحياد العلمي ونبذ التعصّب إلّا للحق المستند إلى العقل السليم والمنطق القويم.



٢٠ ـ ولا يغيب عنّا ما تحلّى به من عبقرية في الخلق والعمل إلى جانب عبقريته في الفكر والنظر إذ جمع بين البطولة الفائقة والعاطفة الجيّاشة وبين الجدّ والزهد والتعبد والقناعة والجهاد والشهادة والمرجعية مع نكران الذات فهو مفكّر مجدد ومرجع شهيد وإمام مؤسس وعبقري فريد.

الإمام الشهيد من خلال كلماته الخالدة

١ ـ «إنّ دمي هو الذي سيترجمني، فأنا لا أريد إلّا خدمة الإسلام وهو اليوم بحاجة إلى دمي أكثر من حاجته إلى ترجمتي»[٤].

٢ ـ قال لأحد مُلازميه: «أنا ياولدي أريد أن أغير هذا الواقع بقولي وفعلي، وعليك أن لا تنسى هذه الحقيقة في كل تصرّفاتك وأعمالك».

٣ ـ وقال له أيضاً: هل تريد أن أنعم بالهواء البارد وفي الناس من لا يملك حتى المروحة البسيطة ؟! ألم تعلم بأني أريد لهذه المرجعية حياة البساطة والاكتفاء بأبسط مظاهر العيش بل الضروري منه[٥].

٤ ـ وقال له أيضاً: الناس يعلمون أنك معي

وتصرّفك يحسب عليّ[٦].

٥ ـ وحينما صدر حكم الإعدام على الشهداء الخمسة عام (١٩٤٧) وهم الشيخ عارف البصري ورفاقه خيّم عليه الحزن وكأنه ثكل بأعزّ ولده، فكان يبكي ويقول: والله لو أن البعثيين خيّروني بين إعدام أولادي الخمسة وبين إعدام هؤلاء لاخترت إعدام أولادي وضحيّت بهم. إن الإسلام بحاجةٍ إلى هؤلاء لا إلى أولادي[٧].

٦ ـ وحينما أخبر بإعدام بعض المؤمنين وكان لا يعرفهم، أخذ يبكي ويقول: بأبي أنتم وأميّ أيها السعداء جزاكم الله عن الإسلام وعن أبيكم، هنيئاً لكم، لقد سبقتموني إلى لقاء الله.. إلهي بحقّ أجدادي الطاهرين ألحقني بهم سريعاً، واجمع بيني وبينهم في جنّاتك[٨].

٧ ـ وقال: ليس منطقياً أن أدعو الناس إلى مواجهة السلطة.. ثم لا أكون أوّلهم سبقاً إلى الشهادة في الوقت الذي يستشهد فيه الشاب اليافع والشيخ الكبير من أمثال المرحوم السيد قاسم شبّر الذي جاوز التسعين من عمره؟![٩].

٨ ـ «إنّي آليتُ على نفسي منذ الصغر أن لا أصلّي إلّا بحضور قلب وانقطاع، فاضطرّ في بعض الأحيان إلى الانتظار حتى أتمكّن من طرد الأفكار التي في ذهني حتى تحصل لي حالة الصفاء والانقطاع وعندها أقوم للصلاة»[١٠].

٩ ـ كان قد شتمه شخص فسكت رضوان الله عليه حتى خرج ذلك الشخص من منزله ثم قال: «إنّي بالرغم مما سمعت من هذا الرجل من تهم وشتائم فإني لا أحمل عليه حقداً ولا كرهاً، لأنّه لو اطلع على أوضاعي لما صدر منه ما صدر، وسوف يأتي اليوم الذي يندم فيه ويصلح خطأه»[١١].

١٠ ـ وقال لمراسل إذاعة طهران مجيباً على برقية الإمام الخميني «سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد الخميني دام ظله: استمعت إلى برقيتكم التي عبّرتم بها عن تفقدكم الأبوي لي، وإني إذ لا يتاح لي الجواب على البرقية لأني مودع في زاوية البيت ولا يمكن أن أرى أحداً أو يراني أحد، لا يسعني إلّا أن أسأل المولى سبحانه وتعالى أن يديم ظلّكم منارا للإسلام، ويحفظ الدين الحنيف بمرجعيّتكم القائدة، أسأله تعالى أن يتقبل منا العناء في سبيله، وأن يوفقنا للحفاظ على عقيدة الأمّة الإسلامية العظيمة، وليس لحياة أي إنسان إلّا بقدر ما يُعطي لأمته من وجوده وحياته وفكره، وقد أعطيتم للمسلمين من وجودكم وحياتكم وفكركم ما سيظل به على مدى التاريخ مثلاً عظيماً لكل المجاهدين. محمدباقر الصدر»[١٢].

١١ ـ وقال في البيان الذي وجهه للشعب الإيراني:

«ومن تلك الحقائق الثابتة: أن الشعب الإيراني كان يحقق نجاحه في نضاله بقدر التحامه مع قيادته الروحية ومرجعيته الدينية الرشيدة التحاماً كاملاً.. وما من مرّةٍ غفل فيها الشعب المجاهد عن هذه الحقيقة أو استُغفِلَ بشأنها إلّا وواجه الضياع والتآمر. فالمرجعية الدينية الرشيدة والقيادة الروحية هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف...»[١٣].

١٢ ـ «وقد سُمع يقول مراراً أمام من كان يعترض على تأييده للسيد الخميني والثورة

الإسلامية ولو أن السيد الخميني أمرني أن اسكن في قرية من قرى إيران أخدم فيها الإسلام لما ترددّت في ذلك، إن السيد الخميني حققّ ما كنت أسعى إلى تحقيقه...»[١٤].

١٣ ـ ومما كتبه إلى طلّابه في إيران في أوائل انتصار الثورة الإسلامية المباركة:

«إن الواجب على كل واحد منكم وعلى كل فردٍ قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلامية الرائدة، أن يبذل كل طاقاته وكلّ مالديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كله في خدمة التجربة، فلا توقف في البذل والبناء يُشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل والقضية ترتفع رايتها بقوّة الإسلام.. ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أن مرجعية السيد الخميني التي جسّدت آمال الإسلام في إيران اليوم لابدّ من الالتفاف حولها والإخلاص لها وحماية مصالحها والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم»[١٥].

١٤ ـ وقال عن المواكب الحسينية التي كانت تتحدى النظام الحاكم في العراق:

«إن هذه المواكب شوكة في عيون حكام الجور، إنّ هذه المواكب وهذه الشعائر هي التي زرعت في قلوب الأجيال حبّ الحسين عليه السلام وحبّ الإسلام، فلابدّ من بذل كل الجهود للابقاء عليها رغم حاجة بعضها إلى التعديل والتهذيب»[١٦].

١٥ ـ وأجاب عن سؤال حول فائدة مواجهة مدير الأمن بعنف حينما جاء لاعتقاله:

«أريد أن أجبر السلطة على قتلي، عسى أن يحرّك ذلك الجماهير للإحاطة بالنظام وإقامة حكم القرآن في العراق»[١٧].

وكان مما أجاب به مدير الأمن: «أيّ سلطة هذه؟! وأيّ نظام هذا؟!. إنكم كتمتم الأفواه وصادرتم الحريّات وخنقتم الشعب بقوّة الحديد والنار.. تريدون شعباً ميّتاً بلا إرادة. تريدون شعباً بلا كرامة.. وحين يعبّر شعبنا عن إرادته وحين يتخذ موقفاً من قضيّة ما وحينما تأتي عشرات الآلاف من أبناء شعبنا لتعبّر عن ولائها للإسلام والمرجعية، تقوم قائمتكم، فلا تحترمون شعباً ولا ديناً، ولاقيماً، بل تلجأون إلى القوّة لتكمّوا الأفواه وتصادروا الحريات وتسحقوا كرامة الشعب.

أين الحرية التي تدعونها وجعلتموها شعاراً من شعاراتكم؟!...

لماذا يستولي الرعب والخوف على قلوبكم إن عبّرت الجماهير يوماً عن إرادتها ورغبتها؟!..

ثم خاطب مدير الأمن الذي كان مضطرباً وقلقاً فقال: هيّا لنذهب حيث تريد»[١٨].

١٦ ـ وقال فيما يخصّ الثورة الإسلامية في إيران:

«إن هؤلاء الذين يطلبون مني أن أتريث وأن أتخذ موقفاً من الثورة الإسلامية لا يثير السلطة الحاكمة في العراق حفاظاً على حياتي ومرجعيتي لا يعرفون من الأمور إلّا ظواهرها. إنّ الواجب على هذه المرجعية وعلى النجف كلّها أن تتخذ الموقف المناسب والمطلوب تجاه الثورة الإسلامية في إيران.. ما هو هدف المرجعيّات على طول التاريخ؟ أليس هو إقامة حكم الله عزّ

وجلّ على الأرض؟ وها هي مرجعية الإمام الخميني قد حققّت ذلك، فهل من المنطقي أن أقف موقف المتفرّج؟ ولا أتخذ الموقف الصحيح والمناسب حتى لو كلّفني ذلك حياتي وكل ما أملك؟[١٩].

١٧ ـ ومما جاء في خطابه لعرب إيران بعد أن أثار أعداء الثورة القلاقل والفتن لضرب هذه الثورة المباركة من الداخل:

«.. فإني أخاطبكم باسم الإسلام وأدعوكم وسائر شعوب إيران العظيمة لتجسيد روح الأخوة الإسلامية التي ضربت في التاريخ مثلاً أعلى في التعاضد والتلاحم في مجتمع المتقين الذي لا فضل فيه لمسلم على مسلم إلّا بالتقوى.. فلتتوحد القلوب ولتنصهر كل الطاقات في إطار القيادة الحكيمة للإمام الخميني. وفي طريق بناء المجتمع الإسلامي العظيم الذي يحمل مشعل القرآن الكريم إلى العالم كله..»[٢٠].

١٨ ـ ولقد كان حريصاً على تنامي الوجود الإسلامي في العراق ولو كلّفه ذلك حياته، حتى قال في أكثر من موقف:

«إذا سكتنا فسوف تقضي السلطة على الوجود الإسلامي في العراق»[٢١].

وقال أيضاً: «إني أرى.. أن أستشهد لتستثمر الجماهير دمي. المهم أن اعمل ما أعتقد أنه يخدم الإسلام حتى لو كان ثمنه حياتي ولا أفكّر بنصرٍ سريع»[٢٢].

ومما جاء في بيانه الثاني لأبناء العراق:

«... وأنا أعلن يا أبنائي أنني صممّت على الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه مني، وإنّ



أبواب الجنة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء، حتى يكتب الله لكم النصر. وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنّها حسنة لا تضر معها سيّئة، والشهيد بشهادته يغسل كل ذنوبه مهما بلغت. فعلى كل مسلم في العراق، وعلى كل عراقي في خارج العراق أن يعمل كل ما بوسعه ولو كلّفه ذلك حياته. من أجل إدامة الجهاد والنضال، لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب وتحريره من العصابة اللاإنسانية، وتوفير حكم صالح فذّ شريف يقوم على أساس الإسلام»[٢٣].

وقال أيضاً: «إنّ هذا اليوم هو يوم التضحية، إنّ لديّ رؤية واضحة، إن خياري هو الشهادة. فهو آخر ما يمكن أن أخدم به الإسلام»[٢٤].

وأخيراً كتب بيانه الثالث للشعب العراقي ليوحده تحت راية الإسلام إذ جاء فيه: «.. فأنا معك يا أخي وولدي السُني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلّط والذلّ والاضطهاد...»[٢٥].

انطباعات عن شخصية الإمام المؤسس

كتب عنه الأستاذ محمدعلي الخليليوهو أحد رفاقه أيام دراسته في منتدى النشر الابتدائية:

«..كان موضع اهتمامنا ومحطّ أنظارنا نحن تلاميذ المدرسة صغاراً وكباراً، كما كان موضع تقدير واحترام معلميه.. دون استثناء. فقد كانت له شخصية تفرض وجودها... اتخذه معلموه نموذجاً للطالب المجدّ المؤدّب والمطيع.. حتى أخذ بعض الطلبة يجهد نفسه في تقليده في مشيته وفي حديثه... وقد تجاوز هذا الإعجاب به والحديث عنه جدران المدرسة إلى الشارع والمدارس الأخرى.. وما أتذكر أنه كان له حُسَّد من الطلّاب، بل كان حبّهم له يطغى على كل شيء... وذلك بسبب سلوكه العقلاني معهم، وإضفاء حُبّه وحنانه على من هو أصغر منه واحترامه لمن هو أكبر منه. لقد كان والله معجزة وآية من آيات خلق الله...»[٢٦].

وقال عنه أحد معلميه في تلك الحقبة: «لقد كان ما يدرس في هذه المدرسة من كافّة العلوم دون مستواه، العقلي والفكري، كان شغوفاً بالقراءة محبّاً لتوسيع دائرة معرفته.. لا تقع عيناه على كتاب إلّا وقرأه وفقه ما يحتويه في حين يعزّ فهمه على كثير ممن أنهوا المرحلة الثانوية.. كان يقرأكل شيء... وحينما كان يقرأ عن الماركسية وهو في المرحلة الثالثة من الدراسة الابتدائية... كان يقرأها كناقد لا كدارس لها.. إنّ إلمامه بعلوم اللغة العربية يفوق حدّ التصور لطفل في سنّه...»[٢٧].

«وما وجدته يوماً وقد ارتكبه الغرور أو طغى عليه العجب بنفسه أو تعالى على زملائه التلاميذ مما عنده من علم ومعرفة.. كان شعلة ذكاء وجذوة أدب.. وما التقت عيناه لفرط خجله مرةً عيني أحد مدرّسيه، فهو لا يحدث إلّا ورأسه منحنٍ وعيناه مسبلتان»[٢٨].

وعن جرأته وشجاعته الأدبية فقد عرف عنه أنه كان يلقي القصائد لبعض المواكب الحسينية يوم عاشوراء وهو يرتقي المنبر المعدّ له في الصحن الكاظمي، وكان يرتجل الكلمةالمناسبة دون توقف وتلكّؤ[٢٩].

وفي بداية العقد الثاني من عمره حين هاجر إلى النجف وفي المجلس التأبيني للسيد الأصفهاني يدخل على الشيخ المظفر الكبير يسلّم عليه ويصافحه مثل العلماء. مما أثار استغراب الجميع[٣٠].

وعرّفه خاله الشيخ راضي آل ياسين بعد أن ألقى كلمة في الإمام الحسين عليه‌السلام قائلاًله: «أحسنت يا رافعيّ العراق» تشبيهاً له بالأديب المعروف الرافعي[٣١].

وقال عنه أخوه السيد إسماعيل الصدر معرباً

عن نبوغه وكماله : «سيّدنا الأخ بلغ ما بلغ في أوان بلوغه»[٣٢].

وقال له آية الله الشيخ عباس الرميثي ـ حين كان في السابعة عشر من عمره ـ: إن التقليد عليك حرام، وتنقل كلمة صريحة لأستاذه الكبير آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي حين عرّفه للشيخ مرتضى آل ياسين قائلاً عنه : يا شيخنا إن هذا الرجل فلتة، هذا الرجل عجيب فيما يتوصل إليه وفيما يطرحه من نظريات وأفكار[٣٣].

ونظراً لقساوة الظروف المعيشية التي مرّت بها أسرته بعد وفاة والده السيد حيدر طلب منه أخوه أن يترك الدراسة ويعمل في السوق، فما كان من السيد محمدباقر إلّا أن احتج على هذا الطلب بالإضراب عن الطعام قائلاً لأخيه : إنّ بإمكاني أن أشبع من الغذاء والأكل وليس بإمكاني أن أشبع من العلم فاتركني وشأني[٣٤].

وعبّر أستاذه السيد الخوئي عن ثقته المطلقة بتلميذه حينما حاولوا أن يُسقطوا السيد الصدر من مكانته لدى أستاذه قائلين له : إن السيد الصدر قد أسس حزباً إسلامياً[٣٥] فأجاب أستاذه الكبير : لو كان السيد الصدر قد أسس حزباً فإني أول من أسجّل اسمي فيه[٣٦].

وكتب عنه العلّامة السيد محمد حسين فضل الله قائلاً : «كان يعيش قلق التطلّع إلى الأعلى وهاجس اكتشاف الجديد، في الفكر والموقع والحركة. وكانت عاطفيته الممتزجة بعقلانيته تجعله يستغرق في علاقاته الإنسانية بتلامذته وإخوانه باحتضانٍ غريب عمّا يعرفه الناس في محيطه. فقد كان يذوب فيهم فيما ينفتح حسّه الروحي عليهم في آمال المستقبل وتطلّعات الهدف... كان يريد للساحة أن تهتز وللحوزات أن تتسارع.. كان يشعر أن الزمن لا ينتظر لأن التحديات كانت كبيرة في ساحته.. وهكذا انطلقت «الدعوة الإسلامية» من خلال فكره وجهده وموقعه، وكان لدوره فيها الأثر الكبير في انتماء الكثيرين إليها وثقتهم بها وتعاونهم مع العاملين فيها. وقد عانى الكثير من المشاكل في سبيل ذلك من الوسط العلمي الحوزوي.. إن نشاطه التأليفي... كان منطلقاً من الشعور بحاجة الحركة الإسلامية باعتبارها الواجهة للإسلام في ساحة التحدي الحركي إلى أن تقدم نفسها إلى العالم في مجالات الصراع الفكري... وكانت الأسس المنطقية للاستقراء نقلة نوعية للفكر الفلسفي الإسلامي ليدلل على أن العقيدة الإسلامية تملك الصلابة العميقة الجذور في عمق الفكر الفلسفي بالمستوى الذي يجعلها حركة فكرية متقدمة على المستوى الجديد في حركة الفكر الفلسفي المعاصر.

.. رأيناه يفكر في «المرجعية الرشيدة» التي تمثل النقلة النوعية لحركة المرجعية لتكون مؤسسة بدلاً من أن تكون فرداً ولتكون فاعلة لا أن تكون منفعلة.. و... إنّ شهادته في مركز التحدي الكبير للنظام الطاغي في العراق، كانت من بين العطاء الكبير الذي قدّمه للثورة (الإسلامية الرائدة في إيران...) التي أدخلت الرعب في قلوب الحكّام الظالمين في المنطقة.. إن خسارة الثورة الإسلامية الشاملة له كانت كبيرة جداً لأن فكره الفقهي المنفتح على الواقع

الحركي كان يمكن أن يحقق للثورة في حركتها نحو النظام الإسلامي في خط الدولة الكثير من النتائج الفقهية القانونية القائمة على أدقّ الأسس العلمية المعترف بها من فضلاء الحوزة...».

«لقد كان مثال العالم الفقيه الأصولي الفيلسوف الإسلامي الحركي الذي جعل كل حركته العلمية المبدعة في خدمة الحركة الإسلامية الرائدة»[٣٧].

وقال آية الله الشهيد صدوقي بعد نقله لرؤيا رآها جد الشهيد الصدر حيث حلّ ضيفاً على الإمام الرضا عليه السلام ثم تعريف الإمام لهذه الأسرة بقوله: هؤلاء بني الصدر بذلوا فينا مهجهم. وكرّسوا لخدمتنا أنفسهم إنّ الله عز شأنه سيمنّ عليهم بولدٍ صالح يكون على يديه خير للإسلام عميم»: وهكذا كان فلقد منّ الله تبارك وتعالى على الأمّة الإسلامية بالعبد الصالح السيد محمدباقر الصدر الذي عمّ خيره وفضله الآفاق الإسلامية[٣٨].

وقال عنه أحد تلامذته: إن الإمام الشهيد.. قد استحوذ على القلوب، وكان له موضع الإعظام في النفوس لعمله قبل علمه، ولتقواه قبل فهمه، ولنزاهته وقداسته قبل عبقريته وإحاطته...»[٣٩].

وكتب عنه الشيخ محمد مهدي الآصفي فيما كتب: «نمط السيد الشهيد نمط آخر هو الاقتحام إلى داخل قلاع الفكر الرأسمالي والماركسي... وكان هذا الانتقال... من خندق الدفاع إلى خندق الهجوم والاقتحام سببه الفهم الواعي للشريعة الإسلامية والأصالة. في فكر الشهيد نجد الطرح الإسلامي المستقل والقائم بالذات بصورة أصيلة وصافية»[٤٠].

وقال عنه الشيخ محمد جواد مغنية: إن الصدر عندما يريد أن يحقق مسألة ما فهو كالذي ينزل إلى أعماق الأرض ثم عندما يريد الخروج إلى سطحها يفتّش عن كل الطرق المؤدية إلى السطح ولا يكتفي بطريق واحد[٤١].

وقال الدكتور أحميدة النيفر: والذي يقرأ لباقر الصدر يدرك بسهولة أنه لم يكتب لطائفته الشيعية فحسب فهو رغم كونه الشيعي حريص أن يكون خطابه إسلامياً تتجاوز به النعرات الطائفية الضيّقة..»[٤٢].

وقال عنه آية الله السيد عبدالكريم الموسوي الأردبيلي: «إنني أتحرّج في الحديث عن هذه الشخصية المُثلى...»[٤٣]. وقال الدكتور محمد شوقي الفنجري من مصر حين زار السيد الشهيد في بيته المتواضع في النجف: «سماحة الشيخ: إن كتبكم تعتبر آية في عمقها ودقّتها العلمية، وفي محتواها الفكري فقد نالت إعجابي وإعجاب عدد كبير من أصدقائي الأساتذة ومنهم المفكّر الفرنسي روجيه غارودي الذي يرغب هو أيضاً بزيارتكم، فأين تلقّيتم دراستكم؟ وفي أي جامعة من جامعات العالم؟ فأجابه السيد قدس سره: في المساجد. الطلبة هنا في النجف يدرسون في المساجد. فقال الدكتور وقد أصابه الذهول: والله إن مساجد النجف أفضل من جامعات أوروبا كلّها..»[٤٤].

وقال له الدكتور الفنجري أيضاً: لو ترجم هذا الكتاب ـ يعني الأسس المنطقية للاستقراء ـ إلى

اللغة الإنكليزية ترجمة دقيقة فسوف يحدث ثورة في أوروبا»[٤٥].

وقال الشيخ محمد رضا النعماني الذي رافق السيد الشهيد عن كثب مدّة طويلة عن قدرة السيد الفائقة في الأجابة عن الأسئلة التي كانت ترد:

«ورغم غرابة بعض الأسئلة أو اختلافها في العمق أو البساطة فإن السيد الشهيد كان يجيب عليها بالدقّة العلمية المعروفة عنه، وبالوضوح المعهود منه، ولم أعهده تلكّأ في جواب أو حار في ردّ طيلة مرافقتي له»[٤٦].

وقال تلميذه الكبير السيد كاظم الحائري دام ظله: أنه رضوان الله عليه كان يستطيع نسف الفلسفة الإفلاطونية بل كان قد بدأ بذلك على مستوى الأحاديث والأبحاث الخاصّة بينه وبين بعض طلّابه، ولم يبرز ذلك على شكل كتاب؛ لأنّ قسماً من الناس يؤمنون بالله من خلال هذا الطريق فلم يجد ضرورة أو حاجة تستلزم الخوض في هذا الموضوع. ومن المؤكد أن عمله هذا لو حققه فسوف يجعله على رأس قمة فلاسفة العالم ولكانت مكانته الاجتماعية والعلمية قد تتجاوز العالم الإسلامي إلى العالم كله، ومع ذلك فقد قدّم المصلحة الدينية على ما سيحصل عليه من شهرة لو أنه حقق ذلك المشروع الفلسفي»[٤٧].

وقال عنه تلميذه الألمعي السيد محمود الهاشمي أيضاً: والحقيقة أن استيعاب أبعاد عظمة هذا العالم الربّاني العامل لا يتيسر لأحد في مثل هذه الدراسة العاجلة. ولكن ذلك لا يعفينا من التعرّض لأبرز معالم مدرسته العلمية والفكرية التي أنشأها وخرّج على أساسها جيلاً من العلماء الرساليين والمثقفين الواعين والعاملين في سبيل الله المخلصين.. رغم قصر حياته الشريفة التي ابتلاه الله فيها بما يبتلي به العظماء من الصديقين والشهداء والصالحين. ثم ذكر هذه المميزات بعد أن قال: المدرسة التي ستبقى رائدة وخالدة في تاريخ العلم والإيمان معاً. وهي:

١ ـ الشمول والموسوعية. ٢ ـ الاستيعاب والإحاطة. ٣ ـ الإبداع والتجديد. ٤ ـ المنهجية والتنسيق. ٥ ـ النزعة المنطقية والوجدانية. ٦ ـ الذوق الفني والإحساس العقلائي. ٧ ـ القيمة الحضارية..

ثم قال: لقد كان سيدنا الشهيد الصدر تحدّياً حضارياً معاصراً. وكان من مميزات مدرسته أنها استطاعت التصدي لنسف أسس الحضارة المادّية لإنسان العصر الحديث، وأن يقدّم الحضارة الإسلامية شامخة على أنقاض تلك الحضارة المنسوفة وعلى أسس قويمة وضمن بناء شامل ومتماسك ومتين...»[٤٨].

وكتب عنه السيد حسين الشامي وهو أحد تلامذته النابهين:

«إن السيد الشهيد كان منظومة الفكر الشامل والعمل الشامل، وهذا هو الذي جعله يستوعب الواقع الإسلامي بكل آفاقه وأبعاده ويمكنه الإحاطة الواعية بحاجاته ومشكلاته، فقدّم في ضوء ذلك معالجاته وطروحاته الفريدة من خلال النظرية والتطبيق معاً.. لم يركز الإمام الصدر جهوده على حقل واحد من حقول النشاط الإسلامي.. فكتب في الاقتصاد والفلسفة والمنطق والأصول والتاريخ والتفسير والمفاهيم

الحركية والرؤى السياسية، وكان في كل ما كتب أفضل من كتب.. فرغم مرور أكثر من عقد على استشهاده فإن تراثه الفكري لايزال هو الأوّل في كل مجالاته»[٤٩].

«إن الإمام الصدر اعتمد المنهج الشمولي نفسه في التحرّك المبدئي فكان هو رجل الفكر وقائد التحرّك وأستاذ الحوزة ومرجع المسلمين وابن الأمّة ثم كان المجاهد المضحّي الذي ختم حياته بالشهادة»[٥٠].

وقال الأستاذ الشيخ علي حجتي كرماني عن السيد الشهيد: «.. إذا قلت بأنه أبرز وجه علمي وألمع شخصية علمائية في العالم الإسلامي، وإذا قلت أنه أكبر منظّر آيديولوجي في عالم التشيّع فلن أكون مبالغاً»[٥١].

من مظاهر شخصية الإمام الشهيد

١ ـ المبدئي الشجاع

حينما طلب حكّام البعث العفلقي من الإمام الصدر إدانة الثورة الإسلامية والتعرّض بسوء لشخص قائدها الإمام الخميني، قال لضابط الأمن: لقد كان هدفي وأمنيتي في حياتي تأسيس حكومة إسلامية، والآن وقد تأسست في إيران وتحققت أمنيتي فكيف أقول شيئاً ضدّها؟!

وعندما قال له ضابط الأمن بأنه سيعُدم إذن. قال له الإمام الصدر: «إذا كنت مأموراً بتنفيد حكم الإعدام فنفّذه الآن، وأنا انتظر الإعدام منذ فترة والشهادة طريق آبائي وأجدادي».

فما كان من ضابط الأمن إلّا أن بكى وقبّل يد السيد الشهيد[٥٢].

٢ ـ التسامح وصفاء النفس

«انفصل أحد طلابه عن درسه وعن خطّه الفكري ثم بدأ يشتمه وينال منه في غيابه أمام الناس، وكانت تصل كلماته إلى مسامع الأستاذ الشهيد.. وفي ذات يوم جرى الكلام عن هذا الطالب بحضرته فقال قدس‌سره: أنا لازلت أعتقد بعدالة هذا الشخص، وأن ما يصدر منه ناتج عن خطأ في اعتقاده، وليس ناتجاً عن عدم مبالاته بالدين»[٥٣].

٣ ـ التواضع الفريد

لقد عُرف الشهيد الصدر بالتواضع منذ طفولته، أمام معلّميه وأمام زملائه فلم يطغ عليه العجب ولم يأخذه الغرور بالرغم من نبوغه الخارق. وكان يشتد تواضعه كلما كان يرتقي في سلّم العلم والكمال.

لقد خاطبه أستاذه السيد الخوئي ـ وهو يحظى بمقام علمي فريد لدى أستاذه ـ فيقول له: «عفواً سيّدنا أنا خادمكم»[٥٤].

ومن صور تواضعه لغير أساتذته أيضاً ما روي من أنه وصلت إلى النجف جنازة لميت من إحدى نواحي النجف، وذهب بعض ذوي المتوفى إلى منزل السيد الصدر طالبين منه الصلاة، وذهب آخرون إلى بيت السيد يوسف الحكيم. ولم يعلم كل منهما بمبادرة الآخر. فالتقى السيد الصدر مع السيد يوسف الحكيم عند جنازة المتوفى فتأخر السيد الصدر وأخذ يلحّ على السيد يوسف بالتقدم للصلاة ويعتذر له بأنه غير مسبوق بقدومه، مبدياً اعتذاره الشديد لذلك بخجل وحياء، ثم تنحى جانباً إلى أن رفعت الجنازة وتفرق الجميع.

لم يكتف السيد الصدر بذلك الاعتذار وإنما يذهب إلى منزل السيد يوسف ليكرر الاعتذار ويعلن عن أسفه الشديد. هذا وهو ممّن رشح للمرجعية حينذاك[٥٥].

ولم يسمح السيد الصدر لأن يُكتب على غلاف الكتب التي ألّفها وطبعت في حياته بأكثر من الاسم المجرد عن أي لقب أي: (محمدباقر الصدر) فقط. بالرغم من تفوّقه علمياً واجتماعيّاً وحوزوياً. كما لم يسمح لأن يكتب أي لقبٍ على رسالته العلمية «الفتاوى الواضحة» بعد أن كان من المتعارف اجتماعياً وحوزوياً أن يكتب على مثلها لقب (آية الله العظمى)، بل اكتفى بكلمة (السيد محمدباقر الصدر)[٥٦].

٤ ـ نكران الذات

يوم صدر له كتاب (اقتصادنا) وهو الكتاب الفريد من نوعه ولحد الآن وبعد مرور أربعة عقود تقريباً، غلّفت إحدى دور النشر في بيروت الكتاب بغلاف يحمل صورة السيد ونبذة من حياته فأمر السيد بنزع هذا الغلاف قبل بيعه[٥٧].

وحينما كتب (فلسفتنا) أراد طبعه باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف بعد عرضه عليهم متنازلاً عن حقه في وضع اسمه عليه. إلّا أن جماعة العلماء أرادت إجراء بعض التعديلات التي لم تكن صحيحة بنظره. فاضطر أن يطبعه باسمه[٥٨].

٥ ـ نقد الذات ومحاسبة النفس

قال قدس سره: إني حينما طبعت هذا الكتاب (أي فلسفتنا) لم أكن أعرف أنه سيكون له هذا الصيت العظيم في العالم.. مما يؤدّي إلى اشتهار من يُنسب إليه الكتاب، وأنا الآن أفكر أحياناً أني لو كنت مطّلعاً على ذلك وعلى مدى تأثيره في إعلان شأن مؤلّفه لدى الناس فهل كنتُ مستعدّاً لطبعه باسم جماعة العلماء وليس باسمي كما كنت مستعدّاً لذلك أولاً؟ وأكاد أبكي خشية أني لو كنت مطّلعاً على ذلك لم أكن أستعدّ لطبعه بغير أسمي[٥٩].

هذا وكان يعيش في مجتمع يتكالب أكثر أبنائه على زعامات الدنيا أو كسب مديح الناس وثنائهم.

٦ ـ احترام الآخرين

لقد تعارف لدى كثير من العلماء أنهم يسمون أفكار مخالفيهم إلى الجهل أو عدم الوضوح أو السخف أو يقولون: أن هذا لا يصدر ممن له أدنى معرفة أو غير ذلك من صنوف التعبير التي تستلزم إهانة الآخرين أو عدم احترام أفكارهم.

وإذا بشهيدنا الفذ لا يعمد إلى مصادرة آراء الغير مهما كانت بعيدةً عن الصواب بل نجده يثني على العلماء بالرغم من انه لا يوافقهم. بل نجده ينسب القصور لنفسه ويجلّهم عن ذلك قائلاً: هيهات لذهني القاصر أن يرتفع إلى آفاق تفكيرهم.. إلى غيرها من ألوان التواضع العلمي الذي يستبطن ويستلزم احترامهم[٦٠].

وكان رضوان الله عليه يقوم احتراماً لكل وافد يدخل عليه، ويحترم كل أحد ويستبشر بكل زائر، يحب الناس من قلبه وأعماقه[٦١].

٧ ـ العطف والرأفة

إن أبوّته لطلاب الحوزة العلمية كانت ذات طابع خاص قد تفرّد به، حتى أنه كان يبكي حينما كان يودّع الطلبة الذين لم يتورّعوا عن سبّه

ومعاداته، فضلاً عن تلامذته وأخصّائه.

كما عُرف بتفقد أحوال الطلبة ومراقبة ملبسهم ومأكلهم وسائر حاجاتهم. حتى أنه حينما اطّلع على أن أحد الطلبة لم يذق طعاماً منذ يومين، اعتلت على وجهه كآبة وارتعدت فرائصه وقال: صحيح هنا في النجف من الطلبة من هو جائع؟ ولم يذق طعاماً منذ يومين وأنا شبعان؟ ماذا أقول للإمام الحجة؟ ماذا أجيب ربّي يوم القيامة؟

وعندها ناول المخبر خمسة دنانير وأمره أن يحث الخطى لإيصالها طالباً منه أن يستغفر له لأنه لم يكن على علم بحاله[٦٢].

وتعدّى ذلك إلى غير الطلبة ممن يرتبط به، فهو يحضر مجلس زفاف خادمه ويطيل الجلوس عنده ويقول: إنني مبتهج بهذا الزواج وكأنّه زواج ابني[٦٣]. ويكتب لخادمه بعد أن سُفِّر إلى إيران:

«بسم الله الرحمن الرحيم: جناب الوفي الزكي الصفي والمؤمن المهذَّب التقيّ محمدعلي حرسه الله بعينه التي لا تنام. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فقد تسلمت رسالتكم الكريمة وكنت في تلهّف للاطلاع على أحوالكم واستقراركم ففرحت بالرسالة كثيراً، وحمدتُ المولى سبحانه وتعالى على وصولكم وسائر أفراد العائلة صحيحين سالمين، وعلم الله أن ذكرك وصورتك في قلبي. والبرّاني[٦٤] بكلّ ما فيه يذكر بك وبنبلك وأمانتك. فأنت لم تكن خادماً للبرّاني وإنما كنت ابناً من أبنائه البارين وولداً من أولاده المخلصين...»[٦٥].

٨ ـ الزهد والقناعة

كان الشهيد الصدر منذ أن لمع نجمه في مدرسة النجف وحتى التقى ربّه شهيداً لا يملك سوى ما يقتات به ليومه.

وزواجه من ابنة عمه كان من موقوفة خصّصت لتزويج السادة، وأداؤه لفريضة الحج كان من مبلغ طبع كتابه «فلسفتنا»[٦٦].

ويقول خادمه: دخلت عليه صباح أحد الأيام لآتيه بفطوره فرأيته يأكل صمّونة يابسة كنت قد جلبتها منذ أسبوع فلما رآني أدار وجهه الشريف.. وأما أثاث البيت فلا يوجد شيء جديد إلّا ما كان موجوداً في أيام زواجه. وهكذا عباءته قديمة قد مضت عليها السنون[٦٧].

وكان يرفض الهدايا التي كان قد تعارف الكثير من أبناء الأمّة تقديمها إلى العلماء تكريماً لهم. وكان يوجّه محبيه لتوظيف هذه الهدايا لخدمة المشاريع العامة من مساجد ومؤسسات خيرية اجتماعية.

ومن هنا فلم يقبل شراء دار أو سيارة له.

وحينما يسأله أحد الطلبة: هل تمتلكون منزلاً؟ فأجابه: نعم، فسأله: أين موقعه؟ فأجابه رحمة‌الله‌عليه: في الجنّة إن شاء الله.[٦٨]

٩ ـ الصبر والحلم

وقال عنه تلميذه الذي لازمه فترة طويلة من حياته المباركة: لقد عشت مع الشهيد الصدر رضوان‌الله‌عليه أمداً طويلاً فكنت أعجب من حلمه وصبره وصفحه، وكان يتلقى ما يوجّه إليه بصبر تنوء منه الجبال، ويصفح عمّن أساء إليه بروح محمدية.

وبلغه أنّ أحد أبناء المراجع قال لمدير أمن النجف: ماذا تنتظرون بالصدر؟ هل تريدونه

خمينياً ثانياً في العراق؟ لماذا لا تعدمونه؟ فقال رضوان الله عليه لما بلغه ذلك: غفر الله لك يا فلان، إن قتلوني اليوم، قتلوكم غداً...». ولم يزد على ذلك شيئاً[٦٩].

وهكذا كان فإن البعثيين لم يرحموا أحداً بعد الشهيد الصدر قدس سره.

١٠ ـ الجدّ في طلب العلم

بدأ السيد محمدباقر الصدر حياةً جديدة في النجف بعد أن كان قد تحدّى أخاه في الصبر على الفقر والفاقة.. فكان دؤوباً في طلب العلم بشكل منقطع النظير فلا يرى شخصه في الأندية والمجالس إلّا قليلاً، وكان قد اتخذ لنفسه غرفة صغيرة في داره لا يخرج منها إلّا لأداء الصلاة أو حضور الدرس أو تناول الطعام[٧٠].

وكان يقول هو ـ لبعض تلاميذه ـ إنني في الأيام التي كنت أطلب العلم كنت أعمل في طلب العلم في كل يوم بقدر عمل خمسة أشخاص مجدّين... كنت أشتغل منذ استيقاظي من النوم في كل يوم بطلب العلم، وكنت أنسى كل شيء وكل حاجة معيشية إلى أن كنت أفاجأ من قبل العائلة بمطالبتي بغذاء يقتاتون به وكنت أحتار عندئذٍ في أمري[٧١].

١١ ـ الانقطاع في العبادة

كان رحمه الله في أحيان كثيرة يجلس في مصلاه وقد دخل وقت الصلاة، بل قد يمضي على دخول وقتها أكثر من نصف ساعة والسيد الشهيد جالس مطرق برأسه يفكّر ثم فجأة ينهض فيودّي الصلاة. وينقطع فيها إلى الله خاشعاً.. وهكذا كان يقرأ القرآن بصوت حزين، ودموع جارية، يخضع القلب لسماعه، وهو في حالة عجيبة من الانقطاع والذوبان مع معاني القرآن. وكان يختار الساعة الثانية ظهراً للطواف على أرض المسجد الحرام المغطاة بالمرمر الطبيعي وهو غير المرمر الموجود حالياً وكان الحر شديداً لا يتمكن أحد من الطواف في ذلك الطرف لشدّة الحر إلّا منتعلاً، فكان يطوف ويصلّي بشكل عادي بينما كان يتضايق من الحر في الظروف الطبيعية وحينما سئل عن قدرته على التحمّل كان جوابه، أنه حين الطواف لم يكن يشعر بالحرارة، نعم كان يشعر بألم في القدم حينما كان يعود إلى الفندق[٧٢].

١٢ ـ التضحية بالنفس

لقد كان شهيدنا الصدر سخياً إلى حدّ كبير في ميادين التضحية فتارة يضحّي بمرجعيته وأخرى بكتابه، وثالثة بماله وجاهه، وأخيراً بروحه ودمه[٧٣].

الشهيد الصدر مدرسة حضارية معاصرة

قدّم الشهيد الصدر ـ في فترة قصيرة جداً من حياته المباركة بالعطاء ـ تراثاً جباراً ينبض بالحيوية والعطاء، ويكهرب الأفكار والقلوب بما كان يزخر به من إبداع وتجديد، ومنهجية وتنسيق، وعمق وأصالة وتنظير وتأسيس، واستشراف للمستقبل، وبُعد الأفق، وتحدٍّ سافر لكل أسس الحضارة الغربية المعاصرة وحركيّة فاعلة تبعث الفرد والمجتمع ليخرج من الأطر الضيقة ليعيش الهموم الكبرى والأهداف الإنسانية المثلى بعيداً عن التقوقع في العنصرية أو الإقليمية أو المذهبية.

فالذي يلمّ بتراث أو يقف على شيء منه لابدّ أن ينطلق مما يتبع فيه ليعيش هموم العالم أجمع وليفكّر بفكر عالمي معطاء، وقد استطاع هذا الفكر العبقري وهذا التراث الثر أن يوجد تياراً فكرياً مميّزاً بخصائص هامة جعلته يكوّن مدرسة ذات معالم بارزة يشار إليها بالبنان إذ أنها أدخلت الفكر الإسلامي المعاصر مرحلة حضارية جديدة للنقلة الكبيرة التي أحدثتها في أوساط مجتمعنا الإسلامي وللعطاء الزاخر الذي لازالت تقدّمه لكل الأمّة الإسلامية إلى جانب الزخم الذي أحدثته الثورة الإسلامية المباركة في إيران. تلك الثورة التي كرّس حياته الشريفة من أجل تحققها وقدّم دمه الزاكي ودماء الأطهار من أبناء أمته قُرباناً يصونها من عبث العابثين. فالشهيد الصدر، اليوم مدرسة فكرية وحضارية فريدة وليس تراثاً بحتاً ومجموعة كتب ومقالات وطروحات ومشاريع كتبت على الورق، وإنما هو فكر متحرك وثقافة حية وموسوعة علمية تتمثل أفكار وقلوب واهتمامات مجموعة كبيرة ممن درس على يديه وتتلمذ على تلامذته وتأثر بتراثه وعاش مع أهدافه واهتماماته وأفكاره.

وتتجلّى هذه المدرسة لنا بوضوح حينما نأخذ كل فكرة أشار إليها أو عالجها ونتتبّع ما طرح بعده من أفكار ترتبط بما أثاره أو أشار إليه لنرى مدى تأثر الكتّاب والمحققين والعلماء بمنهجه وخطّه، وإذا بتراثه الموسوعي يولّد للمجتمع الإسلامي موسوعات شتى في كل حقل من حقول المعرفة الإسلامية بشكل ملفت للنظر وبنحوٍ يدعو إلى دراسة هذه الظاهرة بكل جدّ واهتمام.

معالم مدرسة الشهيد الصدر

وإذا أردنا أن نلخّص معالم هذه المدرسة الصدرية الحضارية فإننا سنقف على الملامح التالية:

١ ـ المنهجية.
٢ ـ النزعة المنطقية والوجدانية.
٣ ـ النزعة التجديدية والإبداعية.
٤ ـ النزعة الموسوعية.
٥ ـ الإحاطة والاستيعاب.
٦ ـ الدقّة.
٧ ـ العمق.
٨ ـ النضج.
٩ ـ الرؤية المستقبلية.
١٠ ـ النزعة التأسيسية.
١١ ـ النزعة التنظيرية.
١٢ ـ الواقعية.
١٣ ـ الذوق الفني.
١٤ ـ النزعة الإنسانية.
١٥ ـ النزعة العالمية.
١٦ ـ الحركية والحيوية.
١٧ ـ الفاعلية والهيمنية والتأثير المستمر.
١٨ ـ النزعة الهجومية (في نسف أسس الحضارة المادية).
١٩ ـ بعد الأفق و (عظمة النقلة).
٢٠ ـ سبق الزمن.

وبعد هذا كله لابدّ أن نضيف إلى معالم هذه المدرسة أيضاً:

٢١ ـ رفيعية الأدب.
٢٢ ـ عصرية الأسلوب.

٢٣ ـ قوة العرض.

٢٤ ـ سلامة الطرح.

لقد كان تراث الشهيد الصدر وليد فكر عبقري مقرون بالجهاد والعمل وإحساس كبير مقرون بالخُلق السامي إذ كان يعمل قبل أن يقول ويطبّق بجدّ قبل أن يرفع الشعار الكبير. ومن هنا كان حيّاً متحركاً وفاعلاً مؤثراً، وواقعياً وعملياً متّسقاً مع الفطرة والوجدان، متناغماً مع الحس المرهف ومتطابقاً مع حاجات الأمّة والمجتمع ومليّباً للإنسانية ما تبغيه في عصرها الراهن من السمو والكمال. وينبغي أن لا نغفل عن النفحة الربانية التي نجدها في هذا التراث ونلمسها بشكل واضح وفريد. وقد اخترق هذا الفكر كل القطاعات والأصناف بدءاً بالجامعات والحوزات العلمية والمرجعيات التقليدية وانتهاء بعامة المدارس الفكرية والحضارة الغربية المعاصرة.

إن إيضاح كل معلمة من معالم هذه المدرسة وتبيان مصاديقه في تراثه قدس سره يحتاج إلى تدوين كتاب مستقل يختص بهذا الأمر ليُعطى كل معلم حدوده وتطبيقاته ويبيّن جذوره وآثاره وامتداداته.

والكلام عن مفردة من هذه المعالم بإيجاز أيضاً مما يستدعي تأجيل البحث إلى مقال آخر سيأتي في العدد اللاحق إن شاء الله تعالى.

الهوامش

١. عمار أبو رغيف، قضايا إسلامية، العدد ٣، التأسيس في فكر السيد الشهيد محمدباقر الصدر، ص: ٢٩.

٢. راجع: الشهيد الصدر رائد الثورة الإسلامية في العراق بقلم غالب حسن، عن مجلّة طريق الحق، العدد: ٧ ص ١١

٣. قضايا إسلامية، العدد: ٣، ص ٢٩.

٤. الشيخ محمدرضا النعماني: الشهيد الصدر، سنوات المحنة وأيام الحصار، ص ١٦.

٥. المصدر نفسه، ص ٩٩.

٦. المصدر نفسه، ص ١٠٢.

٧. المصدر نفسه، ص ١٠٢.

٨. المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

٩. المصدر نفسه، ص ١٠٤.

١٠. المصدر نفسه، ص ١٢١.

١١. المصدر نفسه، ص ١٢٧.

١٢. المصدر، نفسه، ص ١٣٨.

١٣. المصدر نفسه، ص ١٤٤.

١٤. المصدر نفسه، ص ١٦٤.

١٥. المصدر نفسه، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

١٦. المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

١٧. المصدر نفسه، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

١٨. المصدر نفسه، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

١٩. المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

٢٠. المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

٢١. المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

٢٢. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

٢٣. المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

٢٤. المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

٢٥. المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

٢٦. السيد كاظم الحسيني الحائري: مباحث الأصول، ترجمة حياة السيد الشهيد، ج ١ من القسم الثاني، ص ٣٣ ـ ٣٤.

٢٧. المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٠.

٢٨. المصدر نفسه، ص ٤٠ ـ ٤١.

٢٩. المصدر نفسه، ص ٣٤.

٣٠. محمد الحسيني: الإمام الشهيد السيد محمدباقر الصدر، ص ٦٠ عن مجلّة الجهاد العدد ٢١، ص ٧٧.

٣١. المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦١.

٣٢. مباحث الأصول: ص ٤٣.
٣٣. محمد الحسيني، ٩٧ عن السيد حسين الصدر في جريدة صوت العراق العدد (٧٦).
٣٤. محمد الحسيني، : ٦٣ عن جريدة الجهاد العدد ٢٨٣ : ص ١١.
٣٥. وكان هذا الكلام قد صدر في ظرف يُعتبر التحزّب في الحوزة بشكل عام ولدى العلماء بشكل خاص أمراً منكراً.
٣٦. محمد الحسيني: ٩٢ عن الشيخ إبراهيم الأنصاري.
٣٧. محمد حسين فضل الله: من مقدمته لكتاب (الإمام الشهيد محمدباقر الصدر. دراسة في سيرته ومنهجه).
٣٨. محمد الحسيني: ٤٩ عن جريدة الجهاد العدد ٢٣٢، ص ١٢.
٣٩. السيد فاضل النوري: الشهيد الصدر. فضائله وشمائله: ص ٤٥.
٤٠. محمد الحسيني: ١٠١ عن جريدة الجهاد العدد ٢٣٢.
٤١. الحوار الفكري السياسي، ص ٦٧، العدد (٢٨ ـ ٢٩).
٤٢. محمد الحسيني: ١٠٤ عن مجلة العالم الصادرة بلندن العدد ٢١٧.
٤٣. محمد الحسيني: ١٠٨ عن جريدة الجهاد العدد ٢٨٣.
٤٤. الشيخ محمد رضا نعماني: الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار، ص ٦٤ ـ ٦٧.
٤٥. الشيخ محمد رضا النعماني: الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار، ص ٦٤ ـ ٦٧.
٤٦. الشيخ محمد رضا النعماني: ٧٨.
٤٧. المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١، عن جريدة الشهادة، العدد ٢٠٢، ص ٢.
٤٨. السيد محمود الهاشمي: بحوث في علم الأصول، ج ١، ص ٧ ـ ١٢.
٤٩. حسين بركة الشامي: محمدباقر الصدر، دراسات في حياته وفكره، ص ٢٣.
٥٠. المصدر نفسه.
٥١. خالد توفيق: قضايا إسلامية العدد ٣، ص ٤٦٢.
٥٢. محمد الحسيني: الإمام الشهيد السيد محمدباقر الصدر: ٧٧ عن جريدة الجهاد العدد (١٣١)، ص ٥، حديث للسيد كاظم الحائري.
٥٣. السيد كاظم الحسيني الحائري: مقدمة مباحث الأصول: ٤٦.
٥٤. محمد الحسيني: ص ٦٩ عن تلميذ الشهيد الشيخ إبراهيم الأنصاري الذي كان قد سمع حوار الأستاذ الفذ والتلميذ العبقري.
٥٥. محمد الحسيني: ٧٨ ـ ٧٩ نقلاً عن الشيخ إبراهيم الأنصاري.
٥٦. الشيخ محمد رضا النعماني: ص ٧٢، من سنوات المحنة..
٥٧. محمد الحسيني: ٧٥.
٥٨. مقدمة مباحث الأصول: ٤٥.
٥٩. المصدر نفسه.
٦٠. محمد الحسيني: ٨٣ نقلاً عن مقدمة كتاب (غاية الفكر في علم الأصول)، للسيد الشهيد قدس سره.
٦١. الشيخ محمدرضا النعماني: ص ١٢٥.
٦٢. المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٠.
٦٣. المصدر نفسه: ٨٠.
٦٤. البرّاني باللهجة العراقية يعني غرفة استقبال الضيوف.
٦٥. المصدر نفسه، ص ٨٠ ـ ٨١.
٦٦. محمد الحسيني: ٧١ عن جريدة الجهاد (العدد ٢٨٤)، ص ٧.
٦٧. المصدر نفسه، ص ٧٢ عن جريدة الشهادة العدد (٢٠٢).
٦٨. المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤ عن جريدة الجهاد (٢٨٤).
٦٩. راجع الشيخ محمدرضا النعماني: ص ١٢٥ ـ ١٢٨.
٧٠. محمد الحسيني: ٦٣ عن مجلّة الأضواء الصادرة في قم، العدد ٣ السنة ٥، ص ١٥٥.
٧١. السيد كاظم الحسيني الحائري: ٤٧.
٧٢. الشيخ محمدرضا النعماني: الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار، ص ١١٩ ـ ١٢٢.
٧٣. الشيخ محمد رضا النعماني، ص ١٣٠.